الفصل الأول

الـواقع الجاهلـي والتغيير النبـوي

واجه رسولُ الله ﷺ واقعاً صعباً ، قد تقطَّعت أوصاله ، وتمزقت أشلاؤه ، وتباعدت أنحاؤه ، فمعظم الأشياء غير منظمة ، وتجري في غير مكانها الناظم لها ، وكثيراً ما يرى المتأمل التواءات في الفكر ، تعود على الإنسان بالشر ، وتقضي على نوازع الخير ، وتكسر مجاذيفها .

وإنَّ إطلالةً على واقع الجاهلية ، يعطينا صورة لما كان عليه الناسُ قبل بعثة النبي ﷺ ، ثم سنرى منهجه عليه الصلاة والسلام في تغيير النفوس ، وتحطيم الفساد ، ونسخ الباطل؛ وبالتالي يتَّضح دوره ﷺ في تربية الأمة من خلال منهج رباني يدعو إلى الإصلاح والخير ، وسلوك جادَّة الصواب .

ونستطيع إلقاء نظرة على الواقع الجاهلي من خلال الشعر في الجاهلية؛ الذي عبَّر عن الحياة في مختلف أصعدتها ، ونَقَل واقعَ الناس كما هو ، بعُجَره وبُجَره ، وفق النقاط التالية[1]:

أ ـ الخمر :

حيث أُغْرِم العربُ بالخمر ، فشربوها ، واحتسوا كؤوسها ، وافتخروا بمعاقرتها ، وبذلوا الأموال لشرائها ، باعتبارها ـ في ظنهم ـ تزيدهم جرأة

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي؛ للدكتور أحمد محمد الحوفي (٤٣٥).

وشجاعة ، وتولّد خيالات سارَّة ، وتحثُّهم على الإقدام والمغامرة. قال حسان بن ثابت:

ونشربُها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يُنَهْنِهُنا اللقاءُ

وقال المنخّل اليشكري:

فإذا انتشيتُ فإنني رَبُّ الخَوَرْنق والسَّديرِ[1]
وإذا صحوتُ فإنني رَبُّ الشُّوَيْهة والبعيرِ[2]

وبلغت الخمر مكاناً عالياً عند الجاهليين؛ حتى إنها أصبحت هدفاً منشوداً، فلولاها ما حرصوا على الحياة، يقول سُحيم بن وثيل الرِّياحي يخاطب زوجه:

ويحكِ لولا الخمورُ لم أحفل العيـ ـشَ ولا أن يضمَّنني لَحَدُ
هي الحيا والحياة واللهو لا أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلَدُ

وافتخر عنترة بن شداد بالخمر ، وأنه يشربها بعد اشتداد الحر من زجاجة صفراء مخططة ، ومعها إبريق أبيض مسدود الفوهة ، وأنه يستهلك ماله في سكره ، حفيظاً على عرضه ، يقول:

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركَد الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ[3]
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ قُرِنَتْ بأَزْهَرَ في الشِّمال مُفَدَّمِ[4]
فإذا شربتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ مالي وعرضي وافرٌ لَمْ يُكْلَمِ[5]

وبلغ من غرامهم بالخمر أنْ أوصى حاتم الطائي امرأته أن تنضح قبرَه بالخمر ، يقول:

---

(١) «الخورنق»: قصر كان خارج الحيرة. و«السديد»: قصر للمناذرة.
(٢) «الشويهة»: تصغير الشاة.
(٣) «ركد الهواجر»: أي: سكنت ، وذلك عند قائم الظهيرة. «المشوف المعلم»: الدينار الذي حُلِّي وزُيِّن.
(٤) «أسرة»: خطوط. «أزهر»: إبريق أبيض برَّاق. «مفدَّم»: عليه الفدام ، وهي خرقة تشد على فم الإبريق.
(٥) «يكلم»: يجرح.

أَمَـاويَّ إمـا مِـتُّ فـاسعـي بنطفـةٍ من الخمر رَيَّا فانْضَحِنَّ بها قبري

وأيُّ دليل على ولوعهم بالخمر ، وارتخاصهم فيها كلَّ غالٍ؛ من أن يرهن الرجلُ امرأته على شراب ، فيغلق الرهن ، ويترك الزوجة؟!

روى أبو الفرج الأصبهاني أنَّ عروة بن الورد جاء إلى بني النضير ، فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعوه ، ولا شيء معه إلا زوجه ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت ، فلما قال: انطلقي ، قالت: لا سبيلَ إلى ذلك ، قد أغلقتني. فصارتْ عند بني النضير ، فقال:

سقـونـي الخمـرَ ثـم تكنَّفُـونـي عُـــداةُ اللهِ مـــن كـــذبٍ وزورِ
وقـالُـوا لستَ بعـد فـداء سلمـى بِمُغْـنٍ مـا لـديـكَ ولا فقيـرِ
فـــلا واللهِ لـــو مُلِّكْـــتُ أَمْـــري ومَـنْ لـي بـالتَّـدبُّـرِ فـي الأمـورِ
إذاً لعصيتُهـم فـي حـبِّ سلمـى علـى مـا كـان مـن حَسَكِ الصُّـدورِ
فيـا للنَّـاسِ كيـف غُلِبْـتُ أمـري علـى شـيءٍ ويكـرهـه ضميـري؟!

وقد أولع الحضر والبدو بالخمر ، وقامت حانات كثيرة ، وأكثر الشعراء في وصفها ، وخمرها ، وغلمانها ، وأزهارها ، وسُقاتها ، وأعيادها... وانتشرت تلك الحانات في الحيرة ، والطائف وغيرها من الأماكن؛ بسبب وجود الكروم. واستمرت تلك الحانات حتى بعد قيام الإسلام ، وتمادى أهلُ ثقيف في الشرب ، وضاق بهم الخليفة العادل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأضرم النارَ في الحانات والمعاصر. يقول أبو محجن الثقفي:

رَمـاهـا أميـرُ المـؤمنيـن بحتفهـا فخـلَّأنُهـا يبكـونَ حـول المعـاصـر

وبيَّن امرؤ القيس أنه يشربُ هو وندمانه حتى يفقدوا صوابهم ، فيحسبوا الخيلَ صغارَ ضَأْن ، ويظنُّوا الأبيض المسود ، أو الأسود المبيض أسود ، يقول:

ونَشْرَبُ حتى نَحْسِبَ الخيلَ حَوْلَنا نِقاداً وحتى نَحْسِبَ الجَوْنَ أَشْقَرا[1]

---

(١) «نِقاداً»: غنم صغار. «الجون»: الفرس الأسود.

ب ـ الميسر:

وهي عادة ذات جذور عميقة في مجتمع الجاهلية ، لاسيما بين الأغنياء منهم ، وطالما كان الميسر محطة فخار لهم ، باعتباره نوعاً من المقدرة المالية والكرم المتكلَّف ، حيث كانوا يطعمون المحاويج كلَّ ما ربحوه ، وخاصَّة أيام الشدة والشتاء.

وقد أوضح الآلوسي[1] معنى الميسر والمياسرة؛ حيث يجتمع عشرة من اللاعبين ، ويُحْضِروا جزوراً[2] ، يضمنون ثَمنَها لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتُجعل القِداح[3] العشرة في خريطة[4] ، وتُجال ، وتُحرَّك فيها ، ثم يُخْرِج الحرضة أوَّلَ قدح باسم أحدهم على ترتيبٍ معيَّن ، ويكون هذا القدحُ هو نصيبه ، فإنْ كان رابحاً عرف مقدار ربحه ، وبقي القدحُ خارج الخريطة لا يُعاد إليها ، ثم يُخْرِجُ قدحاً باسم الثاني ، ويعرف مقدار ربحه ، وهكذا إلى العشرة. وكلُّ رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثةَ الذين تخرج لهم القِداح التي لا نصيبَ لها ، هم الذين يغرمون ثمن الجزور ، فَيُقْسَم عليهم أثلاثاً.

وكانوا يُوسِرُون ليلاً ، حيث يُوقِدون النار وقد عقروا ناقةً ، وعلى مقربةٍ منهم فقراء العشيرة ، ينتظرون ما يرمي به الأيسارُ من أنصبتهم التي حرَّموها على أنفسهم؛ كرماً وأنفة.

وقد حرَّم الإسلامُ الميسر لما ينشبُ عنه من عداء وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع ،

---

(١) بلوغ الأرب (٣/ ٦٥).

(٢) «جزوراً»: ما يصلح للذبح من الإبل.

(٣) «القداح»: جمع القِدْح ، وهو قطعة من الخشب مستوية ، قليلة العرض ، طولها نحو فِتْر ، تُجعل فيها حزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور.

(٤) «خريطة»: وعاء من جلد ونحوه يُشَدُّ على ما فيه.

وحتى الكرم الذي في الميسر ليس خالصاً؛ كما يُكْرِمُ الشخصُ مِنْ ماله الصَّرْف عن قصد ورغبة.

وإذا قرأنا معلقة لبيد العامري، فإننا نجده يدعو ندماءه إلى نحر الجزور، حيث يلعبون بأزلام متشابهة، وينحرون ناقة عاقراً لأنها أسمن، أو مطفلاً لأنها أغلى، وهو يكسب فيطعم الجمعَ لحمها، حتى إنَّ الجيران والضيفان يشبعون وينعمون؛ كأنهم في وادي تبالة المخصبة سهوله، يقول:

وجَـزْورِ أَيْسـارٍ دَعَـوْتُ لحتفهـا ... بِمَغَـالِـقٍ مُتَشَـابِـهٍ أجسـامُهـا[1]

أَدْعُـو بهـنَّ لِعَـاقِـرٍ أَوْ مُطْفِـلٍ ... بُذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحَامُها[2]

فالضَّيْفُ والجارُ الجَنِيْبُ كأنَّما ... هَبَطا تبـالَـةَ مُخْصِبـاً أَهْضَـامُهـا[3]

وقد سجَّل الشعرُ العربي أن الميسر يكون في الشتاء، فقال الأعشى[4]:

المطعمـو الضيـفَ إذا مـا شَتَـوْا ... والجـاعلـو القـوتَ علـى اليـاسـرِ

وقد مَدَحُوا من يلعب بالميسر، وعابوا من لا ييسر، وسمّوه: البَرم، فقد رثى متمم بن نويرة أخاه، ووصفه بأنه مُولَعٌ بالميسر إذا قعقع الجلد اليابس من شدَّة البرد، وأنه كفيلٌ بأَخْذ ما يتبقى من القداح، وله غنمه، وعليه غرمه، ولا يحمي نصيبه أن يتقسَّمه الفقراء:

ولا بـرمـاً تَهْـدِي النسـاءُ لِعـرْسـه ... إذا القَشْعُ من حَسِّ الشتاء تقعقعا[5]

---

(١) «أيسار»: هم المضاربون بالقداح. «لحتفها»: لنحرها. «مغالق»: هي القِداح؛ لأنه يُغلق بها الرهن.

(٢) «لحامها»: جمع لحم.

(٣) «الجنيب»: الغريب. «أهضامها»: جمع هضم، وهي بطون الأودية ذات النخيل والفواكه.

(٤) الميسر والأزلام؛ لعبد السلام هارون (٢٠).

(٥) «تهدي النساء لعرسه»: ليس ممن تُعطي النساءُ زوجَه لحماً في الشتاء. «القشع»: القربة اليابسة.

إذا جـرَّد القـومُ القِـداحَ وأوقِـدَتْ لهم نارُ أيسارٍ كفىٰ من تَضَجَّعَا[1]
وإنْ شَهِدَ الأيسارَ لم يُلْفَ مالك على الفرثِ يحمي اللحمَ أنَّ يتمزَّعا[2]

ج ـ الزجر والعيافة:

الزجر والعيافة: أن تعتبر بأسماء الطير، ومساقطها، وأنوائها، فتتسعَّد أو تتشاءم، والعائف: المتهكن بالطير أو غيرها[3].

وقد عرف العربُ زَجْرَ الطير والوحش، فما تيامن منها سموه سانحاً، وما تياسر سمّوه بارحاً، وبعضهم قال بالعكس. وهذا الاختلافُ راجع إلى حالة الزاجر والعائف، فمن زَجَر طيراً، وقضى لُبانته، تفاءل بذاك الاتجاه، ومن لم يقضِ حاجته تشاءم بهذا الاتجاه نفسه.

قال ابنُ رشيق القيرواني[4]: وعن الزجر والعيافة يكون الفأل والطِّيَرة، وبينهما فرق، وذلك أنَّ الفأل تقوية للعزيمة، وتحضيض على البغية، وإطماع في النية؛ والطِّيَرة تكسر النية، وتصدُّ عن الوجهة، وتَثْنِي العزيمةَ، وفي ذلك ما يُعطِّل الإحالة على المقادير. وقال الجاحظ[5]: أصلُ التطير من جهة الطير إذا مرَّ بارحا أو سانحاً، أو رآه يتفلَّى وينتتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضَب، أو الأبتر، زَجَرُوا عند ذلك، وتطيَّروا عندها، كما تطيَّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زَجْرُ الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا: التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء.

وتشاءموا بالغراب، وتطيَّروا به، فهو المقدَّم في الشؤم على غيره، قال

---

(١) «تضجع»: تكاسل.
(٢) «الفرث»: بقايا الطعام في الكَرِش.
(٣) القاموس المحيط، مادة (عاف).
(٤) العمدة (٢/ ٢٥٩).
(٥) الحيوان (٣/ ٤٣٨).

عنترة موضِّحاً أن الغراب عندما ينعب فإنه يحثّم الفراق ، وهو غراب أبقع ، فيه سواد وبياض ، وريشه متناثر متساقط ، ومنقاره كالمقص يقطع الأواصر ، ويشتت بين الأحبة :

ظَعَنَ الذينَ فِراقَهُمْ أَتَوَقَّعُ وجرى بَبَيْنِهِمُ الغُرابُ الأَبْقَعُ[1]
حَرَقُ الجناحِ كأنَّ لَحْيَيْ رأسِهِ جَلَمانُ بالأخبارِ هَشٌّ مُولَعُ[2]
فَزَجَرْتُهُ أَلاَّ يُفَرِّخَ عُشُّهُ أبداً ويصبحَ واحداً يَتَفَجَّعُ
إنَّ الذينَ نَعَبْتُ لي بفراقِهِمْ قد أَسْهَرُوا لَيْلي التِّمامَ فأَوْجَعُوا[3]

كما توجَّس زهير بن أبي سُلمى أن يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نعيقَ الغراب :

ألقى فراقُهم في المقلتَيْن قذىً أمسى بذاكَ غرابُ البين قد نَعَقا

وكذلك توجَّس النابغة الذبياني من الغراب ، فقال :

زَعَمَ الغُرابُ بأنَّ رِحْلَتَنَا غَداً وبذاكَ خَبَّرنا الغُدافُ الأسودُ[4]

د ـ عقر الإبل والخيل على القبور :

كان العربُ في الجاهلية يعقرون على قبر الميت ، تكريماً له ، وإشهاراً لفضله على الناس ، وتباهياً بما نحر بنوه على قبره من ذبائح لإطعام الفقراء ، وتوزيعها على المحتاجين. قال زياد بن سلمى الأعجم يرثي المغيرة بن المهلَّب :

فإذا مَرَرْتُ بقَبْرِه فاعْقِرْ بهِ كُومَ الهِجانِ وكُلَّ طِرْفٍ سابحِ[5]

---

(١) «ظعن» : ارتحل. «الأبقع» : الذي فيه سواد وبياض.
(٢) «حرق الجناح» : أي : يتناثر ريشه ويتساقط. «جلمان» : طرفا المقص. «هش» : مسرور بأن يُخبر بالفراق.
(٣) «نعبت» : النعيب : صوت الغراب مع مدِّ صوته. «ليل التمام» : أطول ليالي الشتاء.
(٤) «الغداف» : السابغ الريش.
(٥) «الطرف» : الكريم العتيق من الخيل.

وانْضَحْ جَوانبَ قَبْرِه بدمائِها فَلَقَدْ يكونُ أَخَا دمٍ وذَبائحِ

وكأنَّ النوق كانت تدرك أنها تُعْقَر عند القبور؛ فلذا تنفر من رؤية القبور، وتتهيَّب ذاك المنظر. قال أحدُ الشعراء وقد مرَّ على قبر رَبيعة بن مُكَدَّم ـ فارس العرب في الجاهلية ـ:

نَفَرت قَلُوصِي من حِجارةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدينِ وَهُوبِ
لا تَنْفِري يا ناقُ منه فإنَّه شِرِّيْبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
لولا السِّفارُ وطُولُ قَفْرِ مَهْمَهٍ لتركتُها تَحْبُو على العُرْقوبِ

هـ ـ الهامة والصَّدى:

هذه خرافةٌ مبعثُها ولوعهم بالثأر، وأيُّ تحريضٍ على الثأر أقوىٰ مِنْ زعمهم أنَّ القتيل الذي لم يُؤْخَذْ بثأره؛ يخرج من هامته طائرٌ يُسمَّى الهامة، فلا يزال يقول: اسقوني، اسقوني، حتى يُقْتَل قاتلُه، فيسكن[1]؟!

قال شَدَّاد بن الأسود يبكي قتلى بدر:

يُخَبِّرنا الرسولُ لَسَوْفَ نَحْيا وكيف لقاءُ أصداء وهامِ؟!

وقال ذو الإصبع العَدْواني:

يا عَمْرو إلاَّ تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي أَضْرِبْكَ حيث تقول الهامةُ اسْقُوني

أمَّا الصَّدى فهو طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلي. قال أبو دواد:

سُلِّط الموتُ والمَنُونُ عليهم فَلَهُمْ في صَدَى المقابرِ هَامُ

وقال لبيد:

فليس الناسُ بَعْدَكَ في نَقِيرٍ ولَيْسُوا غَيْرَ أصداءٍ وهامِ[2]

وقال الجاحظ[3]: الصَّدى: طائر يخرجُ من هامة الميت إذا بَلِي، فينعَى

---

(١) الأمالي؛ لأبي علي القالي (١/ ١٢٩).
(٢) «النقير»: النقرة خلف النواة.
(٣) البيان والتبيين (١/ ٢٨٤).

إليه ضَعْفَ وليِّه ، وعَجْزَه عن طلب طائلته . وهذا كانت تقوله الجاهلية . قال النَّمرُ بنُ تَوْلَب :

أعـاذلَ إنْ يُصْبِـحْ صَـدايَ بقفـرةٍ بعيـداً نـآنـي صـاحبـي وقـريبـي
تَـرَىٰ أنَّ مـا أبقيـتُ لـم أَكُ رَبَّـهُ وأنَّ الـذي أَمْضَيْـتُ كـان نَصِيْبـي

وقد ظلَّ الصدى في أذهان بعضهم بعد الإسلام؛ مما يدلُّ على أصالته في النفوس ، قال توبةُ :

ولـو أَنَّ ليلـى الأَخْيَليَّـةَ سَلَّمَـتْ علـيَّ ودُونـي تُـربـةٌ وصَفَـائـحُ
لَسَلَّمْـتُ تَسْليـمَ البَشَـاشـةِ أو زقـا إليها صَدىً من جانب القبر صائحُ[1]

و ـ تمائم للوقاية من الحسد والجن :

اعتمد الجاهليون على التمائم جَلْباً للنفع ، ودَفْعاً للضُّر . والتميمة : عُوذة تُعلَّق على الإنسان ، قال سَلَمَة بن الخُرْشُب :

تُعَـوَّذُ بـالـرَّقـي مـن غيـر خَبْـلٍ وتُعْقَـدُ فـي قـلائِـدهـا التَّمِيـمُ

وقال رقاع بن قيس الأسدي :

أَحَـبُّ بـلادِ اللهِ مـا بَيْـنَ مَنْعـجٍ إليَّ وسَلْمَـىٰ أن يَصُـوبَ سَحـابُهـا
بـلادٌ بهـا حَـلَّ الشبـابُ تمـائمـي وأوَّلُ أَرْضٍ مَـسَّ جِلْـديَ تـرابُهـا

والتمائم ، واحدتها : تميمة ، وهي خَرزات كان الأعرابُ يُعلِّقونها على أولادهم ، ينفونَ بها النفس والعين بزَعْمهم ، فأبطله الإسلام ، وإياه أراد الهُذَلي بقوله :

وإذا المنيَّـةُ أَنْشَبَـتْ أَظْفـارَهـا أَلْفَيْـتَ كـلَّ تميمـة لا تَنْفَـعُ[2]

وجعلها ابن مسعود من الشرك[3]؛ لأنهم جَعَلُوها واقِيةً من المقادير والموت ، وأرادوا دَفْعَ ذلك بها ، وطلبوا دَفْعَ الأذىٰ من غير الله؛ الذي هو

---

(١) «زقا» : صاح .
(٢) «أنشبت» : أنشب الشيء في الشيء : أَعْلَقَهُ به .
(٣) لسان العرب ، مادة (تمم) .

دافِعُه ، فكأنَّهم جعلوا له شريكاً فيما قَدَّر ، وكَتَب من آجال العباد ، والأعراض التي تُصيبهم ، ولا دافع لما قضى ، ولا شريك له تعالى وتقدَّس فيما قدَّر.

ومن تمائمهم:

* **تعليق كعب الأرنب**: حيث كانوا يعتقدون أنه وقاية من السحر ، وأنَّ الجن تنفر من الأرنب؛ لأنها تحيض(١).

قال امرؤ القيس:

يـا هِنْـدُ لا تَـنْـكِحـي بُـوهَـةً ... عليـه عَقِيقَتُـه أَحْسَبـا(٢)

مُـرَسَّعَـةٌ بيـن أَرْسَـاغِـهِ ... بـه عَسَـمٌ يَبْتَغـي أَرْنَبـا(٣)

لِيَجْعَـلَ فـي كَفِّـهِ كَعْبَهـا ... حِـذَارَ المنيَّـةِ أن يَعْطَبـا

* **تعليق سن الثعلب والهرة وحيض السمرة**:

زعموا أن الصبيَّ إذا خِيف عليه نظرةٌ أو خطفة ، فَعُلِّق عليه شيءٌ من هذه الأشياء سَلِم ، وأن الجن إذا رأته لم تقدر عليه. قالت امرأةٌ تصفُ ولداً:

كـانَـتْ عليـه سنَّـةٌ مِـنْ هـرَّة ... وثعلب والحيضُ حيض السَّمُرَة(٤)

* **تعليق الأقذار النجسة**:

اعتقدوا أنَّ تعليق الأقذار النجسة تقيهم من الإصابة بالعين والجن والأرواح الشريرة.

قال الممزَّق العبدي:

---

(١) صبح الأعشى (١/٤٠٦).

(٢) «بُوهة»: بُومة ، تُضرب مثلاً للرجل الذي لا خيرَ فيه ، ولا عقل له. «عقيقته»: شعره الذي وُلِد به. يريد أن لا يتنظَّف. «أحسبا»: من الحُسْبة ، وهي صُهْبة تضرب إلى الحمرة ، وهي مذمومة عند العرب.

(٣) «مرسعة»: مِثْل المعَاذة. «عَسَم»: يُبْس في الرُّسْغ ، واعوِجاج.

(٤) «السمرة»: نوع من الشجر ، وحيضها: شيء يسيل منها كدم الغزال.

ولو كنتُ في بيتٍ تُسَدُّ خَصاصُه حوالـيَّ مـن أبنـاء بَكْـرَةَ مجلـسُ
ولو كان عندي حازيان وكاهنٌ وعلَّـق أنجـاسـاً علـيَّ المُنَجِّـسُ[1]
إذاً لأتتنـي حيـث كنـت مَنِيَّتـي يَخُـبُّ بهـا هـادٍ إلـيَّ مُعَفْـرِسُ[2]

وكانوا يظنون أن تعليق النجاسات ينقذ من الموت!! قالت امرأة ـ بعد أن علَّقتْ على ولدها نجساً ، فلم يقه من الموت ـ:

نَجَّسْتـــه لا ينفـــع التَّنجيـــسُ والمـــوتُ لا تفـــوتُـــه النفـــوس

فـقء عيـن الفـحـل:

لم يقتصر الأمر على بني الإنسان ، بل تعدَّاه إلى الحيوانات ، حيث كانوا يحصِّنون الإبل من الحسد إذا بلغتْ ألفاً؛ بأن يفقؤوا عينَ الفحل ، فإن زادت الإبلُ على الألف فقؤوا العينَ الأخرى ، وذلك المفقَّأ والمعمَّى[3].

وكانوا يزعمون أن المفقَّأ يطردُ عنها العين والسّواف[4] والغارة ، قال بعضهم:

فقـأتُ لهـا عَيْـنَ الفَحِيْـلِ عِيـافَـةً وفيهنَّ رَعْلاَءُ المسامِعِ والحامي[5]

وقال آخر:

فكـان شكـرُ القـومِ عنـد المنـنِ كـيَّ الصَّحيحـاتِ وفَـقْءَ الأَعْيُـنِ

*** الـرَّتَـم:**

جاء في أمثال العرب: «أَمْحَلُ من تَعْقادِ الرَّتَم»[6]. وكان الرجلُ من

---

(١) «حازيان»: مثنى حازٍ ، وهو الخبير بالأمور ، والمراد ـ هنا ـ: الطبيب الحاذق.
(٢) «معفرس»: سابق سريع.
(٣) الحيوان (١/ ١٧).
(٤) «السواف»: الموتان يقع في الإبل.
(٥) «الفحيل»: المنجب في ضرابه. «العيافة»: التفاؤل. «رعلاء»: هي التي تُشَقُّ أذنُها وتُترك مدلاَّة ، لكرمها.
(٦) جمهـرة الأمثـال (٢/ ٢٩٤) والـدرة الفـاخـرة (٢/ ٣٨٨) والمستقصـى (١/ ٣٦٠) ومجمع الأمثال؛ للميداني (٢/ ٣٢٦).

العرب إذا أراد سفراً عَقَد خيطاً بشجرة ، فإذا رَجَعَ ووَجَده معقوداً زَعَم أنَّ امرأته لم تَخُنْه ، وإنْ وَجَدَه محلولاً زعم أنها خانته. واسم ذلك الخيط: الرَّتَم. قال الشاعر:

هل يَنْفَعَنْكَ اليومَ إنْ هَمَّتْ بِهَمْ كَثْـرَةُ مـا تُـوصِـي وتَعْقَـادُ الـرَّتَـمْ

وكل ما تقدَّم يتعلق بالعادات والمعتقدات السارية في الجاهلية.

ويلحظ الدارسُ في الحياة الخُلُقية عند عرب الجاهلية شيوع **الطيش**، **وسرعة الانفعال**، فلا قانون يردع، ولا نظام يمنع، حيث يعتقد كل إنسانٍ بسيادته وسموّه، ويحسّ بامتلاكه للقوة، وانتسابه للمحتد العريق، إلى جانب التناصر والتعاضد بين الفرد والقبيلة، فكلٌّ ينصر الآخر، ويثأر له، ويندفع دون تفكير بالعواقب، قال سعدُ بن ناشب:

سأغسلُ عني العارَ بالسَّيفِ جالِباً علـيَّ قَضَـاءُ اللهِ مـا كـان جـالِبـا[1]
أَخي غَمَراتٍ لا يريدُ على الذي يَهُمُّ به مِنْ مُفْظِعِ الأمرِ صاحِبا[2]
إذا هَـمَّ لـم تُـرْدَعْ عَـزيمـةُ هَمِّـه ولم يأتِ ما يأتي من الأمر هائِبا[3]
إذا هَـمَّ ألقـى بيـن عينيـهِ عَـزْمَـهُ وَنَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانِبا[4]
ولـم يَسْتَشِـرْ فـي رأيـه غَيْـرَ نَفْسِـه ولم يَرْضَ إلاَّ قائمَ السَّيفِ صاحِبا

وخيرُ مَنْ صوَّر اندفاع العربي في الجاهلية؛ عمرو بن كلثوم، فصوَّر قومه يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان، وإن لم يمسسهم اعتداء أو أذى من الآخرين، يقول:

لنـا الـدُّنيـا ومـا أَمْسَـىٰ عليهـا ونَبْطِـشُ حيـن نَبْطِـشُ قـادِرينـا
بُغـاةً ظـالميـنَ ومـا ظُلِمْنـا ولكنَّـا سَنبـدأُ ظـالمينـا

---

(١) «قضاء الله»: الموت.
(٢) «غمرات»: شدائد. «مفظع الأمر»: هو الأمر الصعب الذي يضيق به صاحبه ذَرْعاً.
(٣) «تردع»: تكفّ.
(٤) «نكّب»: انحرف ومال.

وقد أغار بنو شيبان على قُرَيْط بن أُنَيْف ، وأخذوا ثلاثين بعيراً له ، وخذله قومُه ، فاستنجد ببني مازن ، فنهبوا من بني شيبان مئةَ بعير ، ودفعوها إليه ، فقال يمدح بني مازن الذين نصروه؛ بأنهم يسرعون ويتسابقون إلى نصرة أخيهم ، دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحقُّ النصرة:

لو كنتُ مِنْ مازنٍ لم تَسْتبحْ إبِلي ... بَنُو اللَّقِيطةِ مِنْ ذُهْلِ بن شَيْبانا
قومٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَىٰ ناجِذَيْهِ لهمْ ... طارُوا إليه زُرافاتٍ وَوُحْدانا
لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حين يَنْدُبُهُمْ ... في النَّائباتِ على ما قالَ بُرْهانا

وقريبٌ من هذا قولُ زهير بن أبي سُلْمى:

ومَنْ لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

أمَّا الثأر فكان عربُ الجاهلية يكلفون به ، وها هو المهلهل يؤكد تصميمه على الأخذ بالثأر لأخيه كُلَيْب:

ولستُ بخالعٍ درعي وسيفي ... إلى أن يخلعَ الليلَ النهارُ
وإلاَّ أنْ بَيدَ سَراةَ بَكْرٍ ... فلا يبقى لها أبداً آثارُ[1]

وكان عِصْمة بن حدرة اليربوعي من عرب الجاهلية ، قد نَذَرَ ألا يشرب خمراً ، ولا يأكل لحماً ، ولا يقربَ امرأةً ، ولا يغتسل؛ حتى يقتل سبعين رجلاً من عبس؛ لأنهم قتلوا ابنَ عم له ، فلما قتلهم قال:

اللهُ قد أمكنني من عَبْسِ ... ساغ شرابي وشَفيتُ نَفْسِي
وكنتُ لا أقربُ طُهْرَ عِرْسي ... وكنتُ لا أشربُ فَضْلَ الكأسِ
ولا أشدُّ بالوِخافِ رأسي[2]

ولم تكن القرابةُ لتمنع من إدراك الثأر ، فقد قَتَل قيسُ بن زهير العبسي قريبهَ حمل بن بدر ثأراً لأخيه مالك ، فقال:

---

(١) «سراة»: سادة ورؤساء.

(٢) «الوِخاف»: الخِطْميّ يُغْسَل به الرأس.

شَفيتُ النفسَ من حمل بن بدرٍ وسيفي من حذيفةَ قد شَفاني
فإنْ أكُ قد بردتُ بهم غليلي فلم أقطعْ بهم إلاَّ بَنَاني

فالثأر من القريب كقطع الإصبع من الكف ، وذاك البترُ موجِع .

وقال أبو سفيان بن حَرْب في غزوة أُحُد :

ولو أنَّني لم أَشْفِ نفسيَ منهمْ لكانت شجاً في القَلْبِ ذات نُدُوبِ[1]

والثأرُ سلسلة متواصلة من عمليات القتل التي لا تنتهي ، فتأبَط شراً كان يثأر لخاله ، ويتوقع أن يثأر له ابنُ أخته إذا ما هلك . يقول :

إنَّ بالشِّعْبِ الذي دُونَ سَلْعٍ لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ[2]
خَلَّفَ العِبْءَ عليَّ وَوَلَّىٰ أنا بالعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ[3]
ووراء الثَّأْرِ منِّي ابنُ أُخْتٍ مَصِعٌ عُقْدَتُهُ ما تُحَلُّ[4]
مُطْرِقٌ يَرْشَحُ سمّاً كما أَطْ رقَ أَفْعى يَنْفِثُ السُّمَّ صِلُّ[5]

أمَّا الحياة الدينية عند عرب الجاهلية ، فيمكن الوقوف على العقائد المنتشرة آنذاك من خلال الشعر ـ على قلَّة الشعراء المتديِّنين ـ ، وأهم تلك العقائد : **عبادة الأصنام** ، فقد أقسموا بها ، فقال طَرَفةُ بن العبد :

فأقسمتْ عند النُّصْبِ إني لَمَيِّتٌ بِمَتْلَفَةٍ ليستْ بِغَرْبٍ ولا خَفْضِ[6]

وحَلَف أوس بن حجر باللات والعزَّىٰ وبالله ، فقال :

وباللاَّت والعُزَّى ومَنْ دان دِيْنَها وبـاللهِ إنَّ اللهَ منهنَّ أكبرُ

وكانوا يذبحون عند الأنصاب ، فذكر الجاحظ[7] أنَّ الرجل كان ينذر عند

---

(١) «الشجا» : الحزن . «الندوب» : آثار الجرح .
(٢) «ما يطل» : الطل : مطل الدم والدية ، وإبطالهما .
(٣) «العبء» : الثقل ، وهو ـ هنا ـ : طلب الدم .
(٤) «مصع» : شديد المقاتلة ، ثابت .
(٥) «صل» : هي الحية الخبيثة ، أو الدقيقة الصَّفراء .
(٦) «المتلفة» : القفر . «العزب» : الوهدة المنخفضة .
(٧) الحيوان (١/١٨) .

الأصنام كذا وكذا عتيرة؛ إذا بلغتْ إبلُه أو غنمه كذا وكذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال: إنما قلتُ إني أذبحُ كذا وكذا شاة ، والظباء شاء كما أن الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه مما يصيدُ من الظباء ، فلذلك يقول الحارثُ بن حِلِّزَةَ اليشكُريُّ:

أمْ علينا جُناحُ كِنْدَةَ أنْ يَغْـ ـنَمَ غَازِيهُمُ ومِنَّا الجزاءُ[1]
عَنَناً باطلاً وظُلْماً كما تُعـ ـتَرُ عن حُجْرةِ الرَّبِيْضِ الظِّباءُ[2]

وشبَّه امرؤ القيس قطيع بقر الوحش بالنساء العذارى اللواتي يطفن حول الصنم ، فقال:

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأنَّ نِعاجَهُ عَذَارى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ[3]

والدوار: صنم حجر ، كان أهلُ الجاهلية ينصبونه ، ويطوفون حوله ، تشبيهاً بالطائفين حول الكعبة؛ إذا نأوا عنها[4].

وكانوا يستقسمون عند الأصنام ، ويقدِّمون قرابينهم لها ، وَحَمَوْا بعض أنواع البهائم عن الذبح تقرُّباً للأصنام ، ومنها: البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي.

كما عبد أهلُ الجاهلية الكواكب ، فكان منهم عُبَّاد الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسَّطت السماء ، وإذا غربتْ. وقد عبد الشمسَ عربٌ من حمير ، ومنهم بلقيس ، قال عز وجل: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

وكان الصابئة من عُبَّاد الكواكب ، فهم يعتقدون في الأنواء اعتقاد

---

(١) «جناح»: إثم.
(٢) «عَنَناً»: اعتراضاً. «تُعتر»: العتر: ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تُذبح للأصنام في رجب. «حجرة»: ناحية. «الربيض»: الغنم الرابضة.
(٣) «عَنَّ»: عرض وظهر. «السرب»: القطيع. «الملاء»: جمع ملاءة. «المذيل»: الذي أُطيل ذيله.
(٤) شرح المعلقات السبع؛ للزوزني ، تحقيق: يوسف علي بديوي (٦٨).

المنجّمين في الكواكب السَّيَّارة، فلا يتحركون، ولا يسكنون، ولا يسافرون، ولا يقيمون إلا بنوء منها. وهم يسمُّون أنفسهم بأسماء مُضافة إليها بالعبودية، كعبد شمس، وعبد المشتري، وعبد الشارق.

وكان **عُبَّاد النار** يحلفون بها، وإذا أرادوا أن يستحلفوا الرجل أوقدوا نارا، وألقوا فيها ملحاً من حيث لا يشعر الحالف، فيتفقع الملح، يُهوِّلون عليه بذلك. قال أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمسُ صَدَّ بوجهِهِ كما صَدَّ عن نار المهوِّلِ حالِفُ[1]

وقال بعضُهم:

حَلَفْتُ بالمِلْحِ والرَّمادِ وبالنَّا رِ وبالله نُسْلِمُ الحَلَقَهْ[2]
حتَّى يَظَلَّ الجَوادُ مُنْعَفِراً ويَخْصِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَهْ[3]

وقال آخر:

حَلَفْتُ لهم بالملح والجَمْعُ شُهَّدٌ وبالنَّارِ واللاّتِ التي أعظمُ

وكانوا يستمطرون بالنار، قال الجاحظ[4]: وهي النارُ التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى، فإنهم كانوا إذا تتابعتْ عليهم الأَزمات، وركَد عليهم البلاء، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا، وجَمَعُوا ما قدَرُوا عليه من البقر، ثم عَقَدُوا في أذنابها وبين عراقيبها: السَّلَع والعُشر[5]، ثم صعدوا بها في جبل وَعْر، وأشعلوا فيها النيران، وضجُّوا بالدعاء والتضرُّع، فكانوا يَرَوْنَ أنَّ ذلك من أسباب السُّقيا؛ ولذلك قال أمية بن أبي الصَّلْت:

---

(١) «المهوّل»: الذي كان يتولّى تحليفَ القوم.
(٢) «الحلقة»: حلقة القوم: جماعتهم.
(٣) «منعفراً»: مُلْقى في العفر متربّا. «النبل»: السهام. «الدرقة»: الترس يتخذ من الجلود.
(٤) الحيوان (٤/ ٤٦٦).
(٥) «السَّلَع والعُشر»: نوعان من الشجر.

سَنَـــةٌ أَزْمَـــةٌ تخيَّـــلُ بـــالنَّـــا ... سِ تَـرَى للعِضَـاهِ فيهـا صَـريـرا
إذْ يسفُّـون بـالـدَّقيـقِ وكـانـوا ... قَبْـلُ لا يـأكلـون شيئـاً فَطِيـرا[1]
ويَسُـوقُـونَ بـاقـراً يطـردُ السَّهـ ... ـلَ مهـازيـلَ خَشْيَـةً أنْ يَبُـورا[2]
عـاقِـدِيـنَ النِّيـرانَ فـي شُكُـرِ الأَذْ ... نـابِ عَمْـداً كيمـا تَهِيـج البُحُـورا[3]
فـاشْتـوَتْ كلُّهـا فهـاجَ عليهـم ... ثـم هـاجَـتْ إلـى صَبِيـرٍ صَبِيـرا[4]
فـرآهـا الإلـهُ تُـرْشِـمُ بِـالقَـطْ ... ـرِ وأمسـى جَنَـابُهـم ممطـورا[5]
فَسَقَـاهـا نَشـاصُـه واكـفَ الغَيْـ ... ـثِ منـه إذْ رادعـوه الكبيـرا[6]
سَلَـعٌ مـا ومِثْلـه عُشَـرٌ مـا ... عـائـلٌ مـا وعـالـت البيقـورا[7]

كما نجد **الدَّهريين** المنكرين لعقيدة البعث والجزاء ، فهم يرون أن العالم لا يبيد ، فهم ملحدون يقولون ببقاء الدَّهْر. قال الشاعر:

مَنَـعَ البقـاءَ تقلُّـبُ الشمـسِ ... وطلـوعُهـا مـن حيـث لا تُمْسـي
وطلـوعُهـا حمـراءَ صـافيـة ... وغـروبُهـا صَفْـراء كـالـوَرْسِ
تجـريْ علـى كبـدِ السَّمـاءِ كمـا ... يجـري حِمـامُ المـوتِ فـي النفسِ
اليـوم أعلـمُ مـا يجـيءُ بـه ... ومضـى بفضـلِ قضـائـه أمـسِ

وقد مرَّ معنا قول شَدَّاد بن الأسود:

يُحـدِّثنـا الـرسـولُ بـأنْ سنحيـا ... وكيـفَ حيـاةُ أَصْـداء وهـام؟!

---

(١) «يسفون»: يتناولون بأفواههم. «الفطير»: ما عجل خبزه من ساعة ، ولم يُترك حتى يختمر.
(٢) «باقراً»: بقراً. «مهازيل»: يخاف. «يبور»: يهلك.
(٣) «شكر»: جمع شكير ، وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل. «تهيج»: تثور.
(٤) «كلها»: أي: كل الأذناب ، أو كل البقر. «الصبير»: السحاب يثبت يوماً وليلة ولا يبرح ، كأنه يصبر ، أي: يحبس.
(٥) «فرآها»: أي: الأرض. «ترشم»: أرشمت الأرض: بدا نبتُها. «القطر»: المطر.
(٦) «نشاصه»: هو السحاب المرتفع. «واكف الغيث»: المطر الهاطل.
(٧) «عائل»: عال الشيء فلاناً: ثقل عليه. «البيقور»: البقر.

هذا ، وإن واقع الحياة في الجاهلية يتَّصف بتراكم فاسدٍ في الفكر ، وبتبعية للخرافات والظنون ، فمن يعبد الحجر ، ويسجد للشجر ، ويعاقر الخمر ، ويتعامل بالميسر والربا ، ويَئِد ولده ، ويظلم الآخرين دون جريمةٍ ارتكبوها . . . إن هذا الإنسان قد هانتْ عليه إنسانيتهُ ، وفسدت عقليتهُ ، وآمن بالأباطيل ، واستمرأ الأمور الوخيمة ، فزاغ عن طريق الاستقامة ، وتحوَّلت النواحي الإيجابية إلى سلوك شرير «فقد تحوَّلت الشجاعةُ فتكاً وهمجية ، والجودُ تبذيراً وإسرافاً ، والأَنَفَةُ حميَّة جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلةً لابتكار الجنايات ، والإبداع في إرضاء الشهوات»[1] .

وجاء رسولُ الله ﷺ بالدعوة الربانية ، فدعا الناسَ إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ونَبْذ عبادة الأوثان ، ومحاربة الطاغوت ، والشر ، والفساد ، وقامت دعوتُه على أمرين اثنين ، هما : بناء العقيدة الصحيحة ، وإيجاد تشريع وأخلاق ، يستمدُّ مصداقيته من لدن رب السماء .

ولكن الجاهلية لم تهدأ إزاء دعوته ﷺ ، فقامت تدافع عن تراثها العتيد ، وتقاتل بشراسة على كل الجبهات ، وجمَّعت قواها ، وجاءت بقضّها وقضيضها ، وحدّها وحديدها ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص : ٦] .

وقامت حملات التعذيب ، ونشطت حوادث الاضطهاد لكل مَنْ قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وثبت المؤمنون في وجه العتاة ، لا يثنيهم الأذى ، ولا يفتُّ في عضدهم أيُّ كيد مهما التوى وتعقَّد . ولم يخضعْ ﷺ لإغراءات المشركين ، بل خاطب عمه أبا طالب بقوله : «يا عم لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمرَ في شمالي على أنْ أترك هذا الأمرَ حتى يُظْهره الله أو أهلك فيه ، ما تركتهُ»[2] .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؛ لأبي الحسن الندوي (٨٨) .

(٢) السيرة النبوية ؛ لابن هشام (١/٢٦٦) وتاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية ـ للذهبي (١٤٩) .

وواجه ﷺ الحياة الجاهلية برمَّتها ، وبكل ما فيها من معتقدات زائفة ، وعادات فاسدة ، وأفكار ضالة ، فصدع بآيات القرآن الكريم ، يربي في نفوس الناس مشاعر الإيمان بالله الواحد الأحد ، ويسمو بأرواحهم ، وينقي قلوبهم مما علق بها من أوشاب وأدران ، ويُحرِّرها من سلطان المادة والشهوة ، للوقوف بين يدي الله عز وجل كل يوم خمس مرات في مناجاةٍ ضارعة ، وخشوع عميق ، وتدبُّر لآيات الكون.

وعانى ﷺ معاناةً شديدة ، وذلك أنه جاء المشركين بما لم يعهدوه ، وقد عبَّروا عن ذلك بقولهم لأبي طالب: «إنَّ ابنَ أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا»[1].

وسأقف عند نقطةٍ مهمة ، وهي تحذير الإسلام من الشرك بالله تعالى ، وأبيِّن شيئاً من منهج القرآن ، وطريقة رسول الله ﷺ في تعزيز العقيدة ، وإنقاذ الناس من ظلام الجاهلية والكفر ، إلى نور الإيمان بالخالق عز وجل ، قال الإمام الذهبي[2]:

الكبيرة الأولى: الشرك بالله تعالى: وهو أن تجعلَ لله نِدّاً[3] وهو خَلَقَكَ ، وتعبدَ معه غيره من حَجَر ، أو بشر ، أو شمس ، أو قمر ، أو نبيٍّ ، أو شيخ ، أو جنِّي ، أو نجم ، أو مَلَكٍ ، أو غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

---

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٢٦٥).

(٢) الكبائر؛ للذهبي ، الكبيرة الأولى.

(٣) «نِدّاً»: النِّدُّ: المثل ، وجمعه: أنداد.

والآياتُ في ذلك كثيرة ، فمن أشرك بالله تعالى ، ثم مات مشركاً فهو من أصحاب النار قَطْعاً ، كما أنَّ مَنْ آمن بالله ، ومات مؤمناً فهو من أصحاب الجنة وإن عُذِّب.

وقال النبيُّ ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراكُ بالله. . . »[1] الحديث.

وقال: «اجتنبوا السَّبع الموبقات. . . »[2] فذكر منها «الشِّرْك »[3].

وقال ﷺ: «مَنْ بَدَّل دينه فاقتلوه»[4] حديث صحيح.

وسأشرح كلام الذهبي بشيء من التفصيل ، فأقول:

معنى الشرك لغةً واصطلاحاً:

قال ابنُ منظور في «لسان العرب»: أَشْرَك بالله: جَعَل له شَريكاً في ملكه ، تعالىٰ اللهُ عن ذلك ، والاسم : الشِّرْكُ. قال اللهُ تعالى حكايةً عن عبده لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. والشِّرْكُ: أن يجعلَ لله شريكاً في رُبوبيَّته ، تعالى اللهُ عن الشُّركاء والأَنْداد. وإنما دخلتِ التاءُ في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ لأنَّ معناه: لا تَـعْدِلْ به غيرَه فتجعله شريكاً له ، ومَنْ عَـدَل به شيئاً من خَلْقه فهو كافر مُشْرِك؛ لأنَّ الله وحده لا شريكَ له ، ولا نِـدَّ.

والشِّرْكُ في الاصطلاح:

هو اتخاذ نِدٍّ لله تعالى في الذات ، أو في الصفات ، أو في الأفعال ، أو

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦ ، ٣٨) ، والبخاري (٢٦٥٤) في الشهادات ، ومسلم (٨٧) في الإيمان.

(٢) «الموبقات»: المهلكات ، جمع موبقة. وسُمِّيت الكبائر موبقات لأنها تُهْلِكُ فاعلَها في الدنيا؛ بما يترتَّبُ عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب.

(٣) رواه البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا ، ومسلم (٨٩) في الإيمان.

(٤) رواه أحمد (١/ ٢٨٢) والبخاري (٣٠١٧) في الجهاد، وأبو داود (٤٣٥١) في الحدود، والترمذي (١٤٥٨) في الحدود، والنسائي (٧/ ١٠٣).

في العبادة. فالنِّدُّ في الذات: أن يعتقد أن ذات الله كذات المخلوق ، وهذا من أقبح القبائح ، وأعظم الجهالات.

والنِّدُّ في الصفات: أن يعتقدَ للمخلوق صفةً كصفات الله؛ مثل أن يعتقد أنَّ مخلوقاً ما قديمٌ كقِدَم الله عز وجل.

والنِّدُّ في الأفعال: أن يعتقدَ أنَّ مخلوقاً ما يرزق ، أو يشفي ، أو يتصرَّف في الكون والحياة كما يتصرَّف الله سُبحانه.

والنِّدُّ في العبادة: أن يعبدَ ، أو يدعوَ مع الله إلهاً آخر ، وأن يعظِّمه ويحبه كتعظيم الله وحُبِّه.

أسباب الشِّرْك:

ثمة أسباب وراء ظاهرة **الشرك** ، وأهمُّها:

أ ـ الجهل: ذلك أن المقلِّدَ جاهل ، والجهلُ سبيلٌ إلى الضلال ، فَيُجادل ظنّاً بأنه امتلك الحقيقة ، لكنه في الواقع غير مُؤهَّل للجدال. وقد شدَّد القرآنُ الكريم النكيرَ ، والحملةَ على التقليد الأعمى الذي وقع فيه الجاهليون ، وتمسَّكوا **بالشرك** بسبب تقليد آبائهم ، وفي ذلك عبرة أيّ عبرة لمن يُقلِّدون الأجانب والأعداء فيما يبتكرون في عالم الفكر والأزياء. يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨ ـ ٩].

فهؤلاء الجُهَّالُ المقلِّدون تقليداً أعمى يَحْيَوْن بلا عقلٍ صحيح ، ولا نقلٍ صريح ، بل بمجرَّد الرأي والهوى. فالواحدُ منهم يستكبر عن الحق إذا دُعِيَ إليه ، ويُعْرِضُ تمادياً في الباطل.

ب ـ الهوى: يُشكِّلُ الهوى دوراً كبيراً في ردِّ الناس عن قبول الحق ، واعترافهم بالخالق مُوجِداً ومُشرِّعاً ، فتراهم ينساقون مع شهواتهم ونزواتهم ، باحثين عن اللذَّة ، غير مبالين بالحق والتوحيد ، فكلُّ شيء يرونه حَسَناً في هوى أنفسهم يتَّخذونه دِيْنَهم ، ومَذْهبهم.

وعند ذلك يقترن الجهلُ بالهوى ، والهوى بالكبر ، وبالتالي تتسع شقّةُ الخلاف ، وتتضخَّم الهوّةُ ، يقول تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

وإذا استولى الهوى على النفس ، فإنَّ الإنسانَ ينقلبُ حيواناً ، تطغى عليه الشهوةُ ، وتتحكَّمُ به ذاتهُ ، يقول تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦] .

وهكذا يحيا هؤلاء بعيدين عن الأدلّة الصحيحة ، وعن الحجج الهادية ، فإذا بالشرك والكفر يحيطان بهم من كل جانب .

ج ـ **الكِبْر والعناد** : من المشركين من يُعانِدُ الحقَّ فلا يقبله ، ويجادل مُسْتكبِراً ، فينأى عن النصيحة ، ويستغرق في جهْله وخطيئته . وهذه الأنفةُ الباطلة دليلُ البشرية الزائفة . ويُطالِبُ المعانِدُ بالخوارق ، فهو لا يقبلُ تحكيم العقل ، أو الوقوف على الحق ، بل يستكبر مُطالِباً بالمعجزات ، والأمور غير العادية . وقد قصَّ القرآنُ الكريمُ طرفاً من حكايتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ ـ ٩٣] .

وهذا الجحودُ دليلُ عنادهم ، وأثرٌ خطير من آثار الاستكبار الذي خَرَق فيهم عقولهم ، وتفكيرهم .

د ـ **الخوف** : من أسباب الشرك : الخوف ، والتردُّد ، والإحجام ، فالحقُّ ثباتٌ وتضحية وجرأة ، لكن الإشراك تراجع وخذلان . قال تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٦ ـ ٥٧] .

* الشرك فِكْر مُتحجِّر وتصوُّر خاطىء:

الشرك ظلمٌ عظيم ، ومنافاة للتوحيد ، واستكبار عن الخضوع للخالق الأعظم جلَّ جلالُه ، وَجَهْل بحقيقة الذات الإلهية.

وكانت عبوديةُ المشركين تتَّجه نحو الوثنية بمختلف ضروبها ، وتعدُّد أنواعها ، من أحجار مصنوعة ، وثمار موضوعة ، ونحوت مصفوفة...

وكانوا يظنُّون أنَّ هذه الأصنام تُقرِّبُهم من الله ، فهي الوساطةُ ـ بزعمهم ـ بينهم وبين الخالق: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

ومن المشركين مَنْ أنكر الخالقَ ، وبالتالي فقد رَفَضَ كلَّ شيء معه من البعث ، والحشر ، والحساب ، وقالوا: إنَّ هذه الحياة الدنيا ملعبُنا ، ودارُ تنافسنا فإذا متنا فقد انتهى كل شيء ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وفي بيوتات مكة كانت طائفةٌ من المشركين يقرُّون بوجود الخالق ، ويُوقنون بثبوته ، وقدرته سُبحانه ، ولكنهم شكُّوا في البعث ، ورفضوا الإيمان بالانبعاث من الأجداث ، فإيمانُهم مشبوه ، ويقينُهم مزعزع ، وعلى رأس هؤلاء الكفرة: أبيُّ بن خَلَف الذي نزلتْ في حقِّه هذه الآيات: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وانصرفَ بعضُ المشركين إلى عبادة الجن ، ورأوا فيهم السِّرَّ الغامضَ ، والمجهول المرعِب ، فنصبوهم أرباباً لهم من دون الله ، وتوجَّهوا إليهم بالعبادة. قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وهذه الأنماطُ الفكرية المنحرفة والمتشعِّبة ، جعلت من المشركين ضُلَّالاً ، لا يعون مسؤولياتهم في الحياة ، ولا يدركون خصائص إنسانيتهم ، فَفَقَدُوا أجلَّ مقوماتهم ، من حرية فكرية ، وإرادة مختارة ، وتحكيم للعقل في مضمار الإيمان ، ورجوعٍ إلى الفطرة.

❊ مَـثَـل المشرِك والموحِّـد:

أوضح القرآنُ الكريمُ أنَّ عقيدةَ التوحيد أفضلُ للإنسان ، وأكرمُ له من الشرك ، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

قال ابن قيِّم الجوزية في كتابه: الأمثال في القرآن (ص ٢٦٠ ـ ٢٦١): هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ سبحانه للمشرِك والموحِّد ، فالمشرك بمنزلة عبدٍ تملَّكه جماعةٌ مُشْتركون في خدمته ، لا يمكنه رضاهم أجمعين ، والموحِّد لمَّا كان يعبدُ اللهَ وَحْدَه ، فمثله كمثل عبدِ رجلٍ واحدٍ قد سَلِمَ له ، وعَلِم مقاصده ، وعَرَفَ الطريقَ إلى رضاه ، فهو في راحةٍ من تشاحنِ الخلطاء فيه ، بل هو سالمٌ لمالكه من غير منازعٍ فيه مع رأفة مالكه به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليته بمصالحه ، فهل يستوي هذان العبدان؟!

❊ مِـنْ صُـوَر الـشِّرك:

للشرك صور عديدة تكاد لا تنتهي ، ومن ذلك:

ـ جُمْلة ألفاظ تُوهِم النِّدِّية والمساواة بين الله وبين أحدٍ من خَلْقه ، كقول كثيرٍ من الناس: أنا متوكل على الله وعلى فلان ، وأنا في حِمى الله وفلان.

ـ ألفاظ فيها تعظيمٌ لغير الله ، أو نسبة التأثير إليه ، كقول أحدهم: وحياتك ، أو: وحياة أبيك ، أو: لولا فلان لكان كذا.

ـ اتخاذ المساجد على القبور؛ لما في ذلك من الذريعة إلى تعظيمها ، وعبادتها.

ـ الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها؛ لما في ذلك من التشبُّه بِعُبَّادها.

ـ شدّ الرِّحال إلى غير المساجد الثلاثة: المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى.

ـ قيام الناس بعضهم لبعض على جهة التعظيم.

ـ إشراف القبور ، وبناء القِباب عليها؛ خشية الوقوع في تعظيمها.

ـ الوفاء بالنَّذْر إذا كان في مكانٍ يُعْبَدُ فيه صَنَم ، أو يُقام فيه عيدٌ مِنْ أعياد الجاهليَّة.

ـ الرِّياء ، والتنجيم ، والسِّحر ، والتطيُّر ، والغلوّ في تعظيم الأنبياء ، والصَّالحين.

* **الشركُ ظُلْمٌ عظيم:**

لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ الشركَ ظُلْمٌ عظيم للإنسان وللمجتمع.

أمَّا كون الشرك ظلماً للإنسان؛ فلأنه خالَفَ الفطرةَ الإنسانيةَ ، وشَرَد عن الطريق المستقيم ، فعطَّل عقله وتفكيره ، فغاضَ الخيرُ في نفسه ، وإذا اتَّبَعَ هواه عن ضلالٍ ، وحُمْق وجهالة ، وهذا منهيٌّ عنه بنصِّ القرآن الكريم ، حيث يقول اللهُ عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۖ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

فالشركُ والإسلام لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ ، فالله أَغْنى الشركاء عن الشرك ، ويطلبُ من عباده أن يُخْلِصُوا له العبودية ، ولا يقبلُ منهم عبوديتهم إذا شابوها بشيءٍ من العبودية لغيره في قليل أو كثير.

والشركُ كذلك ظلمٌ للمجتمع؛ لما فيه من الانحراف عن الخُلُق القويم ، والآداب الجمَّة ، وتغيير منهج الفطرة ، فإذا بأفراد المجتمع لا يدينون بالحق ، فيتَّخذون أناساً مثلهم أرباباً من دون الله ، يُشَرِّعون لهم ، وينقادون لمنهجهم ، ويُطيعونهم في أوامرهم ونواهيهم ، وإذا بالمجتمع يتخبَّط بين الأهواء والشهوات ، والآثام والضَّلالات.

* **الشركُ كبيرة لا تُغْتَفَر ما لم يتبْ صاحبُها:**

قَطَعَ اللهُ عز وجل المغفرةَ عن المشركِ ، وأوجب له الخلودَ في النار ، فقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

رُوي أن النبيَّ ﷺ تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فقال له رجلٌ: يا رسولَ الله! والشرك؟! فنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٢٤٥): وهذا من المحكم المتفق عليه، الذي لا اختلافَ فيه بين الأمة.

قال الطبري: قد أبانتْ هذه الآية أنَّ كلَّ صاحبِ كبيرةٍ ففي مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه، ما لم تكنْ كبيرتُه شِرْكاً بالله تعالى.

* حُكْم من بدَّل دينه:

ونعني بذلك: الرِّدَّة، وهي أفحشُ الكفر، وأغلظه حُكْما، ومُحْبِطة للعمل، ولثواب الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فالمرتدُ يُستتاب ثلاث مرات، فإن أصرَّ على رِدَّته قُتِل. قال ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١).

ومن حديث معاذ الذي أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذُ بنُ جبل باليمن، فإذا رجلٌ عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم، ثم تهوَّد، ونحن نريدُه على الإسلام منذ ـ قال: أحسبه ـ شهرين، فقال: والله! لا أقعدُ حتى تضربوا عُنُقَه، فَضُرِبتْ عُنُقُه،

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

فقال: قضى اللهُ ورسولهُ أن من رَجَع عن دينه فاقتلُوه، أو قال: «مَنْ بَدَّل دِيْنَهُ فاقْتُلُوه»، قال الترمذي (١٤٥٨ في الحدود): والعملُ على هذا عند أهل العلم في المرتد، واختلفوا في المرأة إذا ارتدَّتْ عن الإسلام، فقالت طائفةٌ من أهل العلم: تُقْتَل، وهو قولُ الأوزاعي وأحمد وإسحاق، وقالت طائفةٌ منهم: تُحْبَسُ ولا تُقْتَلُ، وهو قولُ سفيان الثوري، وغيره من أهل مكة.

* قراءة في التاريخ:

قال الشيخ محمد الخضري في كتابه (إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ٤٧ وما بعدها): مُنِيَ الإسلامُ بعد وفاة رسولِ الله ﷺ بمصيبةٍ عُظْمى، لو لم تتداركها حكمةُ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لضعف الدِّين، وتشتَّت شملُ المسلمين، فإنَّ العرب ما لبثْتْ بعد أن علمتْ بموت رسول الله ﷺ حتى ارتدَّتْ، ولم يَبْقَ أحدٌ مُتمسِّكاً بدينه منهم إلا قريشاً بمكة، وثقيفاً بالطائف، وقليلاً من غيرهم.

وكان الناسُ في ذلك على قسمين:

فمنهم التاركُ للدِّين بالمرَّة، وهم بنو طيىء، وأسد، ومَنْ تبعهم من غطفان؛ الذين اتَّبعوا طُليحة بن خُوَيْلد الأسدي، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة، وأهل اليمن الذين اتَّبعوا الأسودَ العنسي، وكثيرٌ غيرُهم.

ومنهم المعطِّل للزَّكاة، وهم بعضُ بني تميم؛ الذين يرأسُهم مالك بن نُويرة، وبنو هوازن، وغيرهم.

وكان من رأي أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قتالُ مانعي الزكاة كما يقاتل المرتدين؛ لأنَّ تعطيلَ الزكاة طَعْنٌ على الصلاة، بل على جميع منازل الدِّين. فقال له عمرُ بن الخطاب: يا أبا بكر! كيف تقاتلُ الناس، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عَصَم مني مالَه، ونَفْسَه إلا بحقِّه، وحسابُه على الله»؟! قال أبو بكر: واللهِ! لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإنَّ الزكاةَ حقُّ المال.

والله! لو مَنَعُوني عَنَاقاً[1] كانوا يُؤدُّونها إلى رسولِ الله ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعِها.

قال عمر: فوالله! ما هو إلا أنْ رأيتُ أن قد شَرَح اللهُ صَدْرَ أبي بكر للقتال، فعلمتُ أنه الحق[2].

فشمَّر ـ رضي الله عنه ـ عن ساعد الجدِّ، غير مبالٍ بهذه الأهوال الجِسام، مع قلَّة جيشه، وكثرة عدوِّه، واثقاً بوعده سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. فجازاه اللهُ على ذلك بالنصر العظيم، والفتح المبين، ودانتْ له أُمَمُ العرب.

❊ **كلمات مضيئة:**

أ ـ من ألوان الشرك:

❊ إنَّ النذور الواقعة من عُبَّاد القبور، تقرُّباً بها إليهم؛ ليقضوا لهم حوائجهم، وليشفعوا لهم، كل ذلك شركٌ في العبادة بلا ريب، قال الرافعي في «شرح المنهاج»: وأمَّا النذر للمَشَاهِد التي على قبر وليٍّ، أو شيخ، أو على اسم مَنْ حَلَّها من الأولياء، فإن قَصَد الناذرُ بذلك تعظيمَ البقعةِ والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دُفِن بها، فهذا النذرُ باطل غير منعقد.

❊ قال ابن القيِّم: ومن أنواع الشرك: طَلَبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجُّه إليهم. وهذا أصلُ شِرْك العالم، فإنَّ الميِّت قد انقطع عَمَلُه، وهو لا يملكُ لنفسه نَفْعاً ولا ضرّاً، فَضْلاً عمَّن استغاث به، أو سأله أن يشفعَ له إلى الله، وهذا من جَهْله بالشافع والمشفوع عنده.

❊ قال شيخُ الإسلام ـ ابنُ تيمية ـ: إن الشركَ بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحُه أقربُ إلى النفوس من الشر بخشبةٍ، أو حجر؛ ولهذا تجدُ أهلَ الشرك

---

(١) «عَنَاقاً»: هي الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٤ و٧٢٨٥) ومسلم (٢٠).

يتضرَّعون عندها ، ويخشعون ، ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ، ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجدُ لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها ، والدعاء ما لا يرجونه في المساجد؛ فلأجل هذه المفسدة حَسَم النبيُّ ﷺ مادَّتها ، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً.

* قال الشيخ محمد الغزالي: إذا رأيتَ المرءَ يحبُّ غيرَ الله أكثر مما يحبُّ الله ، ويخافُ العبدَ أكثر مما يخاف الربَّ ، ويتعلق قَلْبُه بالناس أكثر مما يتعلَّق بربِّ الناس ، ويصدرُ عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة ، فإذا نزلتْ به نكبةٌ كان تفكيره في فلان قبل تفكيره في الله ، وإذا أصابه خيرٌ كان حَمْدُه لفلان أَسْبق من شكره لله . . . فاعلمْ أنَّ هذا الشخصَ قد أشرك.

* ومِنَ الشرك: عبادة المال ، والجاه ، والمظاهر ، ومختلف الأهواء والشهوات.

* ومِنَ الشرك: التوجُّه إلى المزارات لتفريج الكرب ، وشفاء المرض ، وتهوين الصعاب ، فتلك المزارات هياكل وثنية.

ب ـ من ألوان الرِّدَّة:

إذا كان المرتدُّ هو مَنْ نفى وجودَ الخالق الصانع ، أو نفى وجود الرسل ، أو حلَّل مُحرَّماً بالإجماع ، أو نفى وجوبَ مُجْمعٍ عليه ، كالصلوات الخمس ، أو عَزَم على الكفر ، أو تردَّد فيه . . . إذا كانَ هذا ، فإن من وُجُوه الرِّدَّة:

* الاحتكام إلى غير شَرْع الله تعالى؛ لأن التشريع من حقِّ الإله العظيم ، والمذاهب الأرضية تعتبرُ الفردَ مُشرِّعاً للجماعة ، بينما نجد في الإسلام أن الله تعالى هو المشرِّع ، قال عز وجل: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

* تَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمن فَعَل ذلك فقد خالف

أمراً مُجْمَعاً عليه ، ونَبَذ طريق الأنبياء الذين جاؤوا يأمرون الناس بِخَلْع الأنداد ، ويدعونهم إلى مكارم الأخلاق ، وينهونهم عن عبادة الأصنام.

* التشبُّـه بالكفَّار ، سواء في الفكر ، أو التصوُّر ، أو اللباس ، أو المظهر ، أو الطعام والشراب والأواني ، ونحو ذلك كالعناية بأعيادهم ، واتخاذ شعاراتهم ، واتِّباعهم في الشرور والمفاسد؛ لقوله ﷺ: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

أي: تزيًا في ظاهره بزيِّهم ، وفي أعماله بفعلهم ، وفي تخلُّقه بِخُلُقهم ، وسار بسيرتهم وهَدْيهم.

قال الإمامُ القرطبيُّ في «المفهم»: لو اختصَّ أهلُ الظلم والفِسْق بشيءٍ ممَّا أَصْلُه سُنَّـة كالخاتم ، والخضاب ، والفَرْق ، لكان ينبغي لأهل الدِّين ألاَّ يتشبَّهوا بهم؛ مخافة الوقوع فيما كرهه الشرعُ من التشبُّه بأهل الفسق؛ ولأنه قد يظـنُّ به مَنْ لا يعرفه أنه منهم ، فيعتقد ذلك فيه ، وينسبه إليهم.

* مـن وحـي التـفـاسيـر:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

سياقُ الآية هكذا يتضمَّنُ اتهامَ اليهود بالشرك ، ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد ، ولا يَذْكُرُ ـ هنا ـ القولَ أو الفعلَ الذي يعدّه عليهم شِرْكاً ، وقد وَرَدَ في مواضع أخرى تفصيلٌ لهذا ، فقد روى القرآنُ عنهم قولهم: ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] كقول النصارى: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠] وهو شركٌ لا شكَّ فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان ، إنما كانوا ـ فقط ـ يقرُّون لهم بحقِّ التشريع ، حق التحليل والتحريم ، الحق الخاصّ بالله ، والذي هو من

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١).

خصائص الألوهية ، ومِنْ ثمّ اعتبرهم القرآنُ مشركين. ولهذا الاعتبار قيمة خاصّة في التصوُّر الإسلامي الصحيح لحدِّ الإسلام ، وشرط الإيمان.

وعلى أيِّ حال فاليهودُ ـ على عَهْد الرسالة المحمدية ـ كانتْ عقائدُهم في الجزيرة العربية حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد. والتهديدُ ـ هنا ـ مُوَجَّهٌ إليهم بأنَّ اللهَ يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم ، ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به ، لم يرجعْ في الدُّنيا عن شِرْكه.

إنَّ الشركَ انقطاعٌ ما بين الله والعباد ، فلا يبقىٰ لهم معه أَمَلٌ في مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدُّنيا وهم مشركون ، مقطوعو الصِّلة بالله ربِّ العالمين.

وما تُشْرِكُ النفسُ بالله ، وتبقى على هذا الشرك ، حتى تخرجَ من الدنيا فاسدةً فساداً لا رجعةَ فيه ، وقد تلفتْ فطرتُها التي بَرَأها اللهُ عليها ، وارتدَّت أسفلَ سافلين ، فتهيَّأتْ بذاتها لحياة الجحيم!

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم الوقح الجاهر ، فإنَّ الله يغفره لمن يشاء ، فهو داخلٌ في حدود المغفرة ، مادام العبدُ يشعر بالله ، ويرجو مغفرته ، ويستيقنُ أنه قادرٌ على أن يغفرَ له ، وأن عفوَه لا يقصرُ عن ذنبه ، وهذا منتهى الأمد في تصوير المغفرة التي لا يُوصَدُ لها باب ، ولا يقفُ عليها بَوَّاب!

ونلاحظ أن منهجَ رسول الله ﷺ تحدِّده الآياتُ القرآنية؛ وَفْق أربعة محاور ، هي:

ـ تلاوة آيات القرآن على الناس ، للتهيئة من أجل العمل.

ـ تعليم الكتاب وتفهيم معاني آياته؛ للعمل بأوامره ، وترك نواهيه.

ـ تعليم الحكمة ، والسُّنَّة ، والإصابة في القول والعمل ، ووَضْع كل شيء موضعه.

ـ تزكية النفوس وتطهيرها من خبائث العقائد والأعمال.

قال عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وعلى هذا قامت التربية النبوية، والرسالة المحمدية، فكان التعليم والتربية عمودَيْ الدعوة الإسلامية، فالمعارف المجردة ليستْ بذات قيمة إذا لم ترتبطْ بالإيمان، وتأتمر بأوامر الخالق عز وجل، وتنتهي عما نهى عنه سبحانه وتعالى.